أبو العـــلاء المعرى

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٣ —

التشاؤم والتشاؤم

لما شاء الله أن يثب قبيل من ثامنة الله[١] تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ، وليست الطفرة على ذى القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات و [لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل بتلك اللهجات البينات ، وكرّم الله أناسيّ كثيراً على سائر المخلوقات بالذى دعته اللغات (العقل) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الإنسان على غيره العظمى

[ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا]

« اللبابُ أهلُ الألباب ، ولكل حيوان حس[٢] ولكن الله فضل الناطقين[٣] »

لما كان الذى سمته الإفرنجية Évolution وصرنا إلى أفق الإنسانية الذى ذكره ابن خلدون روضه وفصّله النشوئيون تفصيلاً [وقد خلقكم أطواراً] ونجم فى الأدمغة ذلك (الفكر) المضىء ، وهو خير ما فى الدنيا ، بل هو كل ما فى الدنيا — كما يقول العلامة بوانكريه — ومحلُّ العقل (الدماغ) كما ذهب إلى ذلك أبو حنيفة وأرنست هيكل لا القلب — كما يقول الشافعى — واستنبط الحجى معانى للأشياء كانت خافية قبل ذلك (الارتقاء)، وهشت النفوس وبشت بما ترى العيون ، وأقبل (الإدراك) وأتى (الفهم) فادرك المحسوس[١] أو المحس ، وفُهم المنظور ، والحسّ البحت والنظر الصرف كما يشعر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلا شىء ، كونهما مثل العدم ، إنّ الهناءة والسعادة فى البصيرة لا البصر ،

لما ارتقينا وعقلنا وعلمنا وبنينا وحفرنا وغرسنا وتلونا :

[هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها]

[هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا]

وقال الشيخ فى (الفصول والغايات) :

« إن شاء الملك قرّب البازح وطواه حتى يطوف الرجل فى الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة حول قاف[٢] ثم يؤوب إلى فراشه والليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة[٣] فيوقد بها ناره فى يبرين[٤] وقاصية الرمال[٥] » فخفقنا قوله ، وطار فى الجو أو فى السُّمَّهى[٦] مثل الطيور الطائرون ، وسمعنا فى دمشق سرار القوم بله الطنطنة[٧] فى برلين وفى لندن وفى باريس وواشنطن ، وبله المَطْمَطة[٨] فى ميادين القتال . وأورى (مركونى) ما أورى وهو فى سفينته فى بحر الروم فأضاءت (سدنى) فى أقصى الأرض [ويخلق ما لا تعلمون] ،

لما قطعنا ما قطعنا ، وبلغنا ما بلغنا ، ومشينا اليَقدُمِيَّة[٩] ، وحمدنا وشكرنا و « الحمد لله رب العالمين » طلعت علينا أجواق تذم الوجود ، وتهجو الحياة ، وتُطرى العدم ، وتلعن الدنيا ،

(١) تامية لله : خلقه لأنهم يتسون .

(٢) فى (الامتاع والمؤانسة) لأبى حيان التوحيدى : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس والحمار فانها أنفس ناقصة غير كاملة ، وهى ضعيفة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم يشع فيها نور النفس الشريفة ، ولم ينبث فيها شعاع العقل الكريم ، فوجب من هذا الوجه أن تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وبطلانها ، لأن الحكمة انتهت إلى ذلك الحد وكونها حشواً لهذا العالم وزينة ومنافع ومبالغ إلى غايات وأغراض .

(٣) أبو العلاء فى (الفصول والغايات)

(١) ورد (المحسوس) فى الفصول والغايات ص ٣٣٣ وفى مقدمة المخصص ج ١ ص ٢ ، ١٠ ونقد الجواليقى المحسوسات فى (تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة) فقال ابن برى : كثيراً ما يستعمل هذه اللفظة أبو على الفارسى وأبو عمران الصفلى على جلالتهما فى العلم فيقولون كل محسوس معلوم وليس كل معلوم محسوسا

(٢) قاف : جبل محيط بالأرض . . وقاف فى سلع الذى هو جبل فى المدينة : يثرب . والمقصود فى كلام الشيخ هو الأول .

(٣) تهامة : مكة ، وبلاد شمالى الحجاز .

(٤) يبرين : من أصقاع البحرين ، ويبرين قرية من قرى حلب .

(٥) رويت هذه النذرة فى إحدى مقالاتى فى (الرسالة) ٢٥٠ ص ٦ فى ١٧ صفر ١٣٥٧ ، وهو ان المقالة (المخترعات وكتاب الفصول والغايات) .

(٦) السمهى : الهواء ، الجو .

(٧) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به .

(٨) المطمطة : تتابع الأصوات فى الحرب وغيرها .

(٩) اليقدمية : التقدم بالهمة والأفعال .

وفى (الفائق) فى حديث ابن عباس : أن ابن أبى العاصى مشى اليقدمية . وفى ابن الزبير مشى القهقرى . أى المشية اليقدمية التى يتقدم بها الناس أى يتقدمهم ورورى بالذال غلطا .

وتكنيها بأم دَفْر وأم دَرَن ، وتصفها بأنها دار قُلْعة[1] ، منزل قُلَعة[2] ، وتسمي خيراتها حُطاما . وجاء فوج أنكر كونها ، ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف لها وجوداً » « وقيل لآخر : ما مثل الدنيا ؟ قال : هي أقل من أن يكون لها مثل » وتمادى محمد بن واسع في استحقارها بل جاز الحد « قيل له : فلان زاهد ، قال : وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها ؟ » وأقبل الحجاج بن يوسف متقرئاً متحنثاً[3] فقال في إحدى الخطب : « والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ؛ ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو لا أن هذا الكُهاكة[4] ـ وكان الحجاج قصيراً أصفر كهاكا ـ أيدي إلى العربية تلك اليد ، وتقرب إلى (الكتاب) ذاك التقرب الكريم المشهر ، وولع بالقرآن ولعاً كبيراً حتى قال عمر بن عبد العزيز : « ما حسدت الحجاج على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله » لو لا كل ذلك لسخطنا وأطلنا القول فيه وبدا (الوليد) متحذلقاً متفلسفاً في هذه المقطوعة التي أخرجته من بغداد :

أخيَّ ، متى خاصمت نفسك فاحتشد
لها ، ومتى حدثتْ نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التجمع(م)
إلا علة للتفرق
أرى الدهر بهلولاً للنفوس وإنما
يقي الله في بعض الوطان من بقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى؟
وعرج على الباقي وسائله لِمْ بقي؟
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب
محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا (وهي صنعة واحد)
فتحسبها صنعى لطيف وأخرق[5]

ومن قوله يذم جميع الناس :

إن الزمان زمان سوء وجميع هذا الناس بو[1]

وأطال علينا أحمد بن الحسين الكندي مجهورا هذا الكلام[2] :

إذا كان الشباب الكر والشيب فرها فالحياة هي الحلم
هل الولد المحبوب إلا تملة
وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل
وما تسع الأزمان علما بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملى
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

يقول ابن الأثير في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) : « كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٦٦) ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبد الرحمن بن علي البيساني (القاضي الفاضل) في هذا فقال لي : (إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق فيما قال » فهل نطق المتنبي بتلكم الأبيات عن خواطر الأناسين ، أم لغا بها عن سوانح الشياطين ، إنهم الشعراء يفتلتون[3] « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » و « الشعر للخَلَد[4] مثل الصورة للقيد ، يمثل الصانع ما لا حقيقة له ، ويقول الخاطر ما لو طولب به لأنكره[5] » . « وإذا رُجع إلى الحقائق فنطقُ اللسان ، لا ينبيُ عن اعتقاد الانسان[6] »

ودهمنا ابن الشبل البغدادي هتاناً[7] جداً[8] يردد هذا الشعر[9] :

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء

(١) قلعة : انقلاع ، تحول وارتحال .
(٢) منزل قلعة : المنزل الذي لا تمسك ، والقلعة من المال مالا يدوم
(٣) « المتقرىء » المتنسك « المتحنث » المتعبد .
(٤) « الكهاكة » هو الذي إذا نظرت اليه كأنه يضحك وليس بضاحك من الكهكهة (الفالق) .
(٥) في « أمالي المرتضى » : قيل : ان السبب في خروج البحتري من بغداد هذه الأبيات ، فان بعض أعدائه شنع عليه بأنه تنبي حيث قال « صنعي لطيف واخرق » وكانت العامة حينئذ غالبة على البلدة ، فخاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الغوث : قم يا بني حتى نطأ هذه الدثرة بخرجة نلم بها شعثنا ونعود ، فخرج ولم يعد .

(١) أصل البو — كما في اللسان — جلد الحوار يحشى تبنا أو تماما أو حشيشا لتعطف عليه الناقة اذا مات ولدها ثم يقرب إلى أم الفصيل لترأمه فتدر عليه . والعرب لم تشتق فعلا من البو وقد وضع الشيخ ابرهيم اليازجي للفظة الافرنسية empailler « يرى » وهي لفظة صالحة .
(٢) جهور الكلام : فخمه .
(٣) الفلتة الكلام يقع من غير إحكام وقد افتلته وفي الأساس : افتلت الكلام : ارتجل ، وكل شيء فعلته فلتة فقد افتلت .
(٤) « الخلد » القلب ، النفس .
(٥) أبو العلاء في « مقدمة » سقط الزند » .
(٦) أبو العلاء في « رسالة الغفران » في أثناء حديث عن المتنبي .
(٧) « هتان » مهذار كثير الكلام .
(٨) جدف بنعمة الله : كفرها واستقلها . وفي حديث : لا تجدفوا بنعم الله
(٩) ذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » وياقوت في « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » وقالا ان وفاته كانت سنة ٤٢٤ ولم يبينا وقت مولده ، وأطريا كثيراً ، وأوردا قصيدته الرائية والهمزية وطائفة من شعره .

بالذى نفتدى عوت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
قبح الله لذة لأذانا نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقد (م) فإيجادنا علينا بلاء
ليت شعرى وللبلى كل ذا الخلق (م) بماذا تميز الأنبياء
موت ذا العالم المفضل بالنطق (م) وذا السارح البهيم سواء
لا غوىٌّ لفقده تبسم الأرض (م) ولا للتقىّ تبكى السماء
إنما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخرين انتهاء
يربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟
مدارك قل لنا فى أى شىء ففى أفهامنا منك انبهار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار
ودنيا كلما وضعت جنيناً غذاه من نوائبها ظؤار
هى العشواء ما خبطت هشيم هى العجماء ما جرحت جُبار
نعاقب فى الظهور وما ولدنا ونذبح فى حشا الأم الجوار
وننتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا انتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أحرجه الوجار
فما ذا الامتنان على وجود لغير الموجَدين به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كونا يُخَيَّر قبله أو نستشار

لقد استأسد ابن الشبل على الحق ، وبالغ فى العفلطة والمسلطة[1] ، ولقد عجبنا إذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريرات (أعنى الأناسية) فى الكون أو فى العدم ، ويقول لها : « انت على التخيير » أنت بالمختار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تُلالى[2]

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخِيَرة ، سبحان الله وتعالى عما يُشركون »

ذرية الأنس لا تزهوا فإنكم ذرٌّ تُعدون أو نملا تضاهونا

إنّ الأناسىّ لم يتمثلوا بشراً أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لا يعلم عددها إلا الله . ومثل ابن الشبل إنما نشأ ذريرة لا تكاد ترى بالمجهر protiste « ثم أنشأناه خلقاً آخر » درّجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لا يحس فى وقت ولا يسمع وما عقل - إن عقل - إلا بالأمس ، ففى أى طور وفى أى حين يُخيَّر أو يستشار ؟

« إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » أو رآه قداحتسى من بحر علم الله حسوة !

* * *

إنّ قوماً لم يريدوا أن يكونوا ، وما أحبوا أن يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردأ صبغ ، بأبشع صبغ : « عَمارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ، أكالة غوّالة[1] » كما يقول قطرى ، إن كان قال هذا . وهجوا قطين الأرض ، أهل الدنيا شر هجاء :

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها ما فى البرية كلها إنسان[2]
أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتاى طلعة حر[3]
زمان يمر ، وعيش يمر ودهر يكر بما لا يسر
وحال يذوب ، وهم يغوب ودنيا تناديك أن ليس حر[4]

وإذا سمعوا المتفائلين الخلص يقولون : (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) تحدوهم صائحين : (ليس فى الإمكان أقبح مما كان) وما النجاة عندهم لمن يجى خلاصه مما يقاسى ويرى إلا فى الانتحار

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا إن يكن أمانيا

ولهم فى قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم الذين سماهم المصطلح العربى بالمتشائمين واسمهم بالفرنجى (Ressimistes)[5] بسيمست . إما أن يكونوا إلهيين ، وإما أن يكونوا دهريين .

« وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يُهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون »

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال : إنما أنتم بقل[6]
ضل الذى قال : البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كتبتها
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورقمها[7]

(١) من خطبة أوردها الجاحظ فى « البيان والتبيين » وابن عبد ربه فى « العقد » وروى قسما منها ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » وعزاها هؤلاء إلى قطرى بن الفجاءة . ورواها الرضى فى مجموعة « النهج » وقال شارحه ابن أبى الحديد : « قد رأيتها فى كتاب « الوثق » لأبى عبيد الله المرزبانى مروية لأمير المؤمنين (عليه السلام) وليس ببعيد عندى أن يكون قطرى قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره وقد لقى قطرى أكثرهم » قلت : صائغها عندى مجهول . (٢) ابن المجارية .

(٣) البديهى من شعراء اليتيمة . (٤) ابن مقلة .

(٥) صاحب هذه المقالة هو شوبنهور Schopenhaur وصاحب مقالة التفاؤل Optimisme هو ليبنز Leibnez والرجلان جرمانيان ، ومقالتاهما متعاندتان . فى المخصص لابن سيده : « تعاندت الآراء إذا لم تتفق ، وهو خلاف تعاضدت ، وأحسبها لفظة فلسفية » . (٦) أبو العلاء

(١) العفلطة : تخليط الخبر « المسلطة » الكلام على غير نظام .

(٢) تلالى : تقول : لا . فى « الخصائص » : إن كثيراً من الأفعال مشتق من الحروف نحو قولهم : سألتك حاجة فلو ليت لى أى قلت لى : لولا وسألتك حاجة فلا ليت لى أى قلت لى : لا . واشتقوا أيضا اسم المصدر ، وهو إسم من الحرف فقالوا اللالاة والولاة . (٣) أبو العلاء

فإن كانوا من الاولين فهل يحق إلا الإيقان كل الإيقان بأن ليس ثمة إلا الحكمة التامة والإتقان

« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »

« صنعَ الله الذى أتقنَ كلَّ شىء »

« الذى أحسن كل شىء خلقه »

« صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة ؟ »

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » ؟

وخلقُك من ربنا حكمة لقد جلَّ عن لعب أو عبث[1]

وإن كانت برهمية وبوذية تريان الكون شراً ، فليست البرهمية والبوذية على شىء ، ولا يُحتسب بمثلهما[2] . وإن عدهما (أرثر شوبنهور) أكمل الأديان طراً من أجل هذا المعتقد نعم « ما الدنيا إلا عمرَى[3] ولاخلود إلا فى الأخرى[4] » و« والدنيا قنطرة[5] » قنطرة الآخرة ؛ لكن هل علينا أن نقعد فى القنطرة نشهق ونزعق ، ونخمش الوجوه ، ونلطم الخدود ، ونلدم الصدور حتى يجىء الأجل ، حتى يجى وقت النقلة ، و (الكتاب) يقول :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا »

ونطق (الكتاب) فصل الخطاب

وإن كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يُسألون : هل علمتم كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنها كانت داراً تستعر استعاراً ، ولم تزل بقايا خبايا فى الزوايا تضطرم . فاقرءوا تاريخها ، واقرءوا تأريخكم ، وفتشوا صحائف الأنساب

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً »

وانظروا كيف عادت[6] (محلة)[7] كيف عادت هذه (الشبراء) ، وانظروا كيف عدتم بشراً ، وكيف سدتم أقربين وأبعدين . وإن تأخرمن عترتكم متأخرون إذ تقدم متقدمون ، فتعلموا أن السابقين والمتوقفين المتمكثين لم يبرحوا فى البدء ، لم يبرحوا فى أول الطريق ، لم يبرحوا فى الطور الشنبزى كما قال توماس أدسن :

تشبه بعض ببعض فما تزال الشمائل قرديه[1]

فأجدر بالدهريين الذين ينشدون :

اجتنب ما سخرت جم لأ له هذى الخليقه

رغبوا فى باطل زور بزهد فى الحقيقه

ليس إلا ما تراه أنا أدرى بالطريقه[2]

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها

فهى دار لا ترى من بعدها أحسن منها[3]

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنيين : معنى هذى، ومعنى تلك ، بل يقولون : كل شىء معناه ومنتهاه فيه ـ أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من المتشائمين فى حين . ومقالهم هذا المقال .

* * *

إن الفتى بكونه سعيد ، بكونه حسب ، قد سعد بما وجد ـ كما يقول الإنكليز ـ فذروا التشاؤم فى الحياة يا أيها الناس ، وابهجوا أنفسكم ، واجتذلوا لعلكم لا تحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول[4] ، ولا تشاءموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر الشيخ فى رسالة الغفران :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشىء كان إلا تحققاً

وكان (صلى الله عليه وسلم) كما روت أحاديث ـ يتفاءل ـ ولا يتطير

وكونوا إيثاريين أثريين فى هذا الوجود كيما تقوا أنفسكم ، وكى تصونوا جنسكم ، وتسعدوا وترتقوا . إن الأثرية والإيثارية هما الفضيلتان العظميان متحدتين لا مفترقتين ، وأولى لأثرى كفر بالإيثارية ثم أولى ! وأولى لإيثارى لم يؤمن بالأثرية ثم أولى . إن الأول شرير شيطان من الشريرين ، وإن الثانى ـ إما كان ـ لذوجينة فى المجانين

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء ، فقد أعلنت أقواله الحقيقة وهدت إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين . وفندت مذهب المتشائمين ، وبينت للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسيرون فى هذا الوجود .

(١) أبو العلاء .
(٢) لا يحتسب به : لا يعتد به .
(٣) العمرى ما تجعله للرجل طول عمرك أو عمره . قال ثعلب : أن يدفع الرجل إلى أخيه داراً فيقول : هذه لك عمرك أو عمرى ، أينا مات دفعت الدار إلى أهله ، وكذلك كان فعلهم فى الجاهلية « اللسان » .
(٤) الزمخشري .
(٥) من أمثالهم .
(٦) العود بمعنى الصيرورة ، وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لانكاد نسمعهم يستعملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراه ، عاد لايكلمنى ، ما عاد لفلان مال « الكشاف » .
٧ محلة : الأرض ، وكلة السهل

(١) أبو العلاء .
(٢) لأبى محمد عبد المولى رواها صاحب « نفح الطيب » .
(٣) رواها « النفح » ولم يسم قائلها : وذكر قولا لأبى عمران موسى بن سعيد قيها بعدها قال : وهذا كفر صراح ، وقائله قد تقدس كفراً ، اللهم غفراً !
(٤) الفؤول : جمع الفأل .